نهاية من صنع القدر

قضى خالدٌ بقيةَ أيامه بعد عزله فى مدينة حمص – زُهاء سنواتٍ أربع – لم يفارقها قليلا إلا ليعود إليها .

وعاش هنالك بين أهله وولده وهم كثيرون .

وكأنما كانت للموت ضريبةٌ مقْضِيَّة على هذا القائد الكبير يطالبه بها فى حربه وسلمه حيث كان . فمات من أولاده نحوُ أربعين فى سنة الطاعون . .

ولم تُرْوِ لنا كلمة قالها خالد فى موت هؤلاء الأبناء الكثيرين ، وهو الرجل الذى كان التبشيرُ بغلامٍ عنده فرحاً من أكبر أفراح الحياة . فكأنما أَلِف وجه الموت لطول ما واجهه من قريب ، فهو لا يلقاه أبدًا لقاء غريب مُريب . .

• • •

وتعقَّب الموتُ أبناءه الذين بقُوا بعد الطاعون ، وأشهرُهم المهاجرُ من حزب على ، وعبدُ الرحمن من حزب معاوية . . فمات المهاجر فى صِفِّين ، ومات عبد الرحمن مسموماً على ما قيل ، لأنه

رُشِّح للخلافة قبل أن يرشِّح يزيدُ بن معاوية لولاية العهد . فسقاه معاويةُ السمَّ على يد الطبيب ابنِ أثال . .

وما هى إلا فترة حتى انقرضت ذُرِّية هذا القائد الكبير ـ صاحب الموت والقدر ـ فورث دورهم بالمدينة أحدُ أبناء أخيه .

وانتهت حياة خالد رضى الله عنه نهايتَها العجيبة ، بين سنة إحدى وعشرين واثنتين وعشرين .

والنهاية العجيبة لحياةٍ مثلِه أن يموتَ على فراشه ـ كما قال ـ بعد أن شهد نَيِّفاً وخمسين زحفاً فى نجد والحجاز والعراق والشام ، ولم يبق فى جسمه مصحٌّ[1] من كثرة الجراح .

وليس هذا كلَّ ما فى موته من «غير المألوف» أو غير المنظور ، فإنه مات ولم يجاوز الخامسةَ والخمسين على أرجح تقدير ، وليست هى بالسنِّ التى تنتهى بها الحياةُ بغير مرض شديد . فإن كان قد ألَمَّ به مرض عارض غيرُ مميت فى جملة أطواره فلعله قد أتم ما بدأه الحزنُ على الأبناء ، والفتورُ من الراحة ، وذلك الاضطراب الذى كان يُفزعه فى نومه ، وينتقعُ منه لونُه إذا غضب أو ثار .

ولم يوجد فى بيته عند موته غيرُ فرسه وغلامه وسلاحٍ وقَفَهُ

(١) المصح : الموضع السليم البرىء من العلل والأمراض .

للجهاد فى سبيل الله . فلما بلغ ذلك عمر قال : رحم الله أبا سليمان ! كان على غير ما ظننّاه به . . ونكّس مرارًا وهو يسترجع[١] كلما رفع رأسه . ثم قال : كان والله سدَّادًا لنحور العدو ميمونَ النقيبة[٢]

وقد كان حزن عمر عليه حزنَ قريبٍ وحزنَ مسلمٍ وحزنَ خليفة . قال لأُمِّه : عزمتُ عليك ألا تبيتى حتى تسوِّدى يديك من الخِضاب .

واجتمع بناتُ عمه يبكين فقيل لعمر : أرسل إليهن فأنهَهُنَّ . فقال : « دعْهُنَّ يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة[٣] على مثلِ أبى سليمانَ تبكى البواكى » .

ولما سُئل عمرُ أن يعهد بعد موته قال :لو أدركتُ أبا عبيدةَ ابن الجراح ثم ولّيته ثم قدِمتُ على ربى فقال لى : لم استخلفْتَه على أمة محمد ؟ . . لقلت : سمعتُ عبدك وخليلَك يقول : لكلِّ أمة أمينٌ وإن أمين هذه الأُمةِ أبو عبيدةَ بنُ الجراح ، ولو أدركتْ خالدًا ثم وليته ثم قدمت على ربى فقال لى من استخلفت على أمة

---

(١) يسترجع : يقول « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

(٢) سداداً لنحور العدو إلخ : من تسديد السهام أو الرماح فى صدور العدو ، وميمون النقيبة : السجية والطبع ، وهى أيضاً المشورة ، ومنها « هو ميمون النقيبة » و « فلان ماله نقيبة » أى ليس له نفاذ فى الرأى .

(٣) نقع أو لقلقة : النقع : رفع الصوت وتتابعه ، واللقلقة : الصوت فى حركة واضطراب ، يقال « للنوائح اللقلقة » .

محمد لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول لخالدٍ : سيفٌ من سيوف الله سلَّه اللهُ على المشركين ؟

ولعمرى إن « سيف الله » قد استحق هذه التزكيةَ وهو فى الغِمْد كما استحقها وهو مشهور .

فليست سنواتُ العزلة بأخفِّ السنوات وزناً فى سيرة خالد بن الوليد ، إن الحوادثَ قد وعظتهُ بها فاتَّعظ فى صبرٍ وأناة . فلم يغلبه لسانُه ولم يغلبه هواه ، ولم يتحرَّكْ لكيد ولا لشَغَبٍ ولا لمذمَّةٍ ولا لوقيعة . ولو شاء بعضَ ذلك لكان له مطمعٌ فيه ، وهو الرجل الذى طبَّقَتْ شهرتُه آفاق المسلمين وغيرِ المسلمين .

نعم إنه لا فتنةَ وابنُ الخطاب حيٌّ كما قال[1] ، وإن الفتنةَ إنما تُخْشَى « إذا كان الناس بذى بِلَّى[2] » أو فى معرضِ الفرقة والنزاع وعصيان الأئمة أو انقطاع الإمام .

ولكنَّ إدراكَ هذا وحده مفخرةٌ من المفاخر ، وليس كلُّ إدراك كهذا الإدراك بالذى يغلبُ الهوى ويقمع النَّزَوات .

---

(١) راجع ص ٢٨٢ .

(٢) بذى بل : يقال : « هو بذى بل » إذا بعد عنك حتى لا تعرف موضعه ، والمراد أن الفتنة تخشى إذا كان الناس بعيدين عن راعيهم ، أما ابن الخطاب فكان يرعى رعيته ، فهو دائماً قريب منهم . وانظر (معجم البلدان) مادة (بل) .

فلا جرم يرشح الفاروقُ خالدًا للخلافة كما رشَّح لها أبا عبيدة ، ولا جرم يعرف سيف الله فى الغمد كما عرفه وهو فى يمين البطل الجسور . فإن يكن خالد مخْشِيَّ المزاحمة على الخلافة فى ظنٍّ من الظنون ، فليس هو بمخشِيٍّ عليها وقد وصلت إليه معهودًا إليه خالصةً من الزحام ، وقد استحقها بعد أكبر مستحقيها ، وريِضَ لها سنواتٍ تجرَّد فيها من سَوْرة[1] الشباب ، وبَعُد ما بينه وبين نشأة الجاهلية ، وقَرُب ما بينه وبين الله .

* * *

لقد مات ـ نصيرُ الموت ـ مطمئنًّا إلى نهاية حياته ، لا يكره منها إلا أنها انتهت به على فراشه .

ولكننا ـ أبناء آدم ـ نكره كثيرًا ما يكون من حقنا أن نتمناه. وما كان لخالد أمنيَّةٌ قد بقيت له فى ميدان الكفاح يتمناها . لقد عرفه الناس حقَّ عرفانِه وهو الكريم الشجاع ، ولم يبق له إلا أن يعرفوه فى ميدان العزلة وهو الشجاع الصبور . وقد عرفوه على هذه الصفة فى ميدان حمص ـ ميدان السلم والتسليم ـ خير عرفان وأجدره بماضيه العظيم ، وتاريخه الخالد المقيم .

(١) سورة الغضب : حدته وشدته . و « ريض » : فعل مبنى للمجهول من « راض » أى درب ومرن .